طبيعة النقد الأدبي

عناصر المحاضرة:

1-طبيعة النقد في العصر الجاهلي

2-طبيعة النقد عند اليونانيين

3-طبيعة النقد في العصر العباسي

4-طبيعة النقد في العصر الحديث

5-طبيعة النقد في عصر ما بعد الحداثة

عندما نتحدث عن طبيعة النقد الأدبي ، فنحن لا نتحدث عن موضوع ثابت و خصائص منتهية تحكم هذا الموضوع ، بل إننا في الواقع نرصد تاريخا لتلك "الطبيعة" و بمعنى آخر نتناول مسيرة تطور هذه الطبيعة منذ العصور الأولى لظهور هذا النشاط ، و وصولا إلى النقد المعاصر الذي اكتسب – بحكم القفزات المعرفية و الفلسفية الحاصلة في التفكير الإنساني-طبيعة متمايزة ، أهم ما يسمها كثافة الخطاب النقدي و بِنْيته.

1- طبيعة النقد في العصر الجاهلي:

ارتبط النقد في العصر الجاهلي "بسوق عكاظ" و "ذو المجاز" حيث كان الشعراء يجتمعون في هذه الأماكن متنافسين في إلقاء ما جادت به قرائحهم ، محتكمين إلى ذوي

الخبرة . و تميز النقد في ذلك العصر بكونه أولا "نقدا فطريا" بعيدا عن الإمعان و التحليل المتكلف"(1) لقد كان الشاعر يتكلم في شؤونه و شؤون قومه على السجية ، و كان الناقد يعلق بشكل تلقائي ، انطباعي يعكس التأثر العفوي السريع بالقصيدة. كما تميز النقد الجاهلي بخاصية "الجزئية" ، ذلك أن الناقد ينطلق في حكمه على القصيدة أوعلى الشاعر من خلال جزئية أثارت انتباهه ، سواء كانت هذه الجزئية نحوية أو بلاغية أو إيقاعية ، على نحو ما نجده عند النقاد الذين أعابوا على النابغة الذبياني قصيدته التي بها "إقواء" و التي يقول فيها:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد و غير مُزوّد

....

زعم البوارح أن رحلتنا غدا و بذاك خبّرنا الغداف الأسو**دُ(2)**

و قد تميز النقد الجاهلي أيضا بالإيجاز و اللاتعليل ، فالناقد يصدر حكمه النهائي بشأن شاعر أومسألة في قصيدة ما ، دون أن يبرر إلا في حالات قليلة كما أن" الشاعر المنتقد يكتفي في كثير من الأحيان بما وجه إليه من حكم نقدي دون أن يطلب تعليلًا أو تحليلًا لذلك، فكأنه يدرك مسبقًا مرجعية هذا الحكم وأنه عائد لذوق الناقد وحسب"(3)

أضف إلى هذه الخصائص تميز النقد الجاهلي بالعمومية ،فالناقد يحكم على القصيدة أو على الشاعر بشكل عام ، انطلاقا من مسألة معينة أثارته سلبا أو إيجابا، مما يجعل الناقد

في غالب الأحيان يغفل عن كثير من المحاسن أو المساوئ. و يمكن أن نمثل لذلك بموقف النابغة الذبياني مع لبيد بن ربيعة عندما قال له :" اذهب فأنت أشعر العرب وذلك فور أن أنشده معلقته"(4) فهذا الحكم كما نرى حكم عام غير مؤسس من الناحية المنطقية ، فالمؤكد أن لبيد يتفوق في موضع على بقية الشعراء و يتفوقون عليه في مواضع أخرى.

2-طبيعة النقد عند اليونانيين: يقودنا الحديث عن طبيعة النقد اليوناني مباشرة إلى أفلاطون و أرسطو، ونتذكر قضية المحاكاة التي شغلتهما بالقدر نفسه مع اختلاف مقاربة فكرة المحاكاة و كيفية اشتغال "المحاكي" بين هذا و ذاك. لقد امتزج النقد الأدبي بالفلسفة امتزاجا يصعب فصل طرفيه. لقد قام الوجود كمحاكاة للأصل :عالم المثل ، و قام الأدب بدوره كمحاكاة للوجود ، فذهب أفلاطون إلى أن هذا الأخير "ينقسم إلى ثلاث دوائر :الدائرة الأولى هي دائرة المثل و المدركات العقلية و هي دائرة الحقائق الكلية، و الدائرة الثانية هي دائرة العالم المحسوس و الطبيعة و الواقع، و الدائرة الثالثة هي دائرة الفنون، و العلاقة التي تربط بين هذه الدوائر الثلاث هي علاقة محاكاة و تقليد."(5) و من هنا انشغل أفلاطون و أرسطو بشرح طبيعة المحاكاة الفنية ، و اختلفا في أهميتها و ضرورتها ، و بناء على ذلك انطلق النقد عندهما من النقطة نفسها ثم سلك مسلكين مختلفين، و لكن في كلتا الحالتين مورس النقد الأدبي بحس فلسفي ، وطغى فعل "التفلسف" على فعل النقد الأدبي بما هو قراءة لنص استوجب الإعجاب أو النفور. و كنتيجة لذلك لم ينفصل التنظير للنقد الأدبي عن الحياة المثالية (أفلاطون) أو الواقعية(أرسطو)، كما لم ينفصل عن دور الإنسان في هذا الوجود ،

الإنسان الذي ينشد الكمال عبر الترفع عن كل ما من شأنه أن يجر إلى العواطف الفاسدة ، أو ذاك الذي ينشد الكمال عبر تعرية النقصان.

3-طبيعة النقد في العصر العباسي: انفتح العرب في العصر العباسي على المجتمعات الأخرى ، و نهلوا من ثقافات الأمم المجاورة ، و خاصة العلوم العقلية و الفلسفة اليونانية ، فكان لذلك تأثير بالغ على الحركة النقدية و على طبيعة العملية النقدية . لقد تجاوزت هذه الأخيرة الأحكام الفطرية ، الجزئية وراحت تؤسس "لعلم" الشعر متأثرة بالمنطق اليوناني ، و يمكن أن نشير في هذا السياق إلى قدامة بن جعفر وكتابه "نقد الشعر" الذي قسم كالآتي :"أولا : علم العروض و الوزن.- ثانيا : علم القوافي و المقاطع.-ثالثا : علم لغة الشعر.-رابعا: علم معاني الشعر.-خامسا : علم الجيد و الرديء في الشعر"(6) و هذه العناوين تشي كما نلاحظ بالبعد العلمي -الموضوعي للعملية النقدية وتعكس التأمل المنطقي لفن الشعر .و سوف يظهر تأثير الفلسفة اليونانية على النقد العربي مع الفارابي و ابن سينا و حازم القرطاجني من خلال اشتغالهم على فكرة المحاكاة و التخييل . و على العموم يمكن القول إن مسار النقد في العصر العباسي عرف منعرجات هامة حررته -إن قليلا أو كثيرا- من الانطباعية و العمومية وأخذته إلى فضاء معرفي و فلسفي سمح بظهور ملامح النقد التاريخي كما هو الحال في "طبقات" ابن سلام الجمحي ، و "الشعر و الشعراء" لابن قتيبة ،و النقد المنهجي كما يتبدى عند ابن المعتز في "بديعه" والآمدي في "موازنته".

4-طبيعة النقد في العصر الحديث: تأخذنا كلمة حديث في الفكر الأوروبي إلى مصطلح الحداثة ، وتحيلنا على مرحلة الانقلاب الأكبر الذي عرفته الحضارة الأوروبية ، الانقلاب على سلطة الكنيسة منذ القرن السادس عشر ، و هو انقلاب كان له انعكاساته على جميع الأصعدة . و لم يكن الحقل الأدبي والنقدي بمعزل عن الحقول المعرفية و الحياتية الأخرى التي راحت تنشد العلم و تتبجح بسلطة العقل بوصفه أداة التقدم و التحرر، فقد نُظر إلى الظاهرة الأدبية بمنظور علمي ، وتوالى- تبعا لذلك- ظهور المناهج النقدية ذات الخطوات العلمية و الإجراءات الموضوعية ، فما من ظاهرة -في الزعم الحداثي- تستعصي على التفسير العلمي . و كنتيجة لذلك تغيرت طبيعة النقد الأدبي ، فاستبدل الانطباع و الذوق بالآليات العلمية ، و راح النقاد يقاربون النصوص أولا في ظل ما عرف بالمناهج السياقية ، ثم قاد هاجس العلمية المفرطة إلى المناهج النسقية التي تنظر إلى النص الأدبي بوصفه بنية و علاقات يمكن رصدها بشكل موضوعي، فنتج عن كل ذلك نقدا أدبيا لا يعالج الأدب بما هو كيان لغوي يعكس روحا إنسانية ، و لكن يعالجه بما هو "شيء" قابل للملاحظة و التحليل و تفكيك العلاقات. لقد صار النقد "مجموعة من العمليّات العقلية والتّأمّل العميق للعمل الأدبي في ضوء أجناسه الأدبيّة وتطوّرها العالمي بهدف تقويم هذا العمل"(7) لقد سعى النقد الحديث إلى هدف العلمية متحليا بمجموعة من القواعد و الضوابط المنهجية ، التي تختلف من منهج إلى آخر ، مستفيدا في ذلك من تطورات العلوم الأخرى .

5-طبيعة النقد في عصر ما بعد الحداثة: إن مصطلح ما بعد الحداثة مصطلح إشكالي ، . و قد استخدم في مجالات متعددة ، في الفلسفة و الأدب و الاقتصاد و السياسة ...إلخ .و " و يُعبر عنه أحيانا Post-modernity " أو"post-modernismهو ترجمة لمصطلح " بمصطلح " ما بعد بنيوية" انطلاقا من كون فلسفات ما بعد الحداثة قد ظهرت بعد سقوط البنيوية . و على العموم فالمعالم الفكرية و الفلسفية لما بعد الحداثة نجدها – كما أشرنا – في الكتابات التي أعقبت البنيوية ، إذ تأزم العقل الغربي بعد أن خاب في تحقيق السعادة المطلقة للإنسان "الحداثي" "التكنولوجي" "العاقل" فخيمت العدمية على هذا الفكر خاصة بعد الحربين العالميتين فبدأ مشروع المراجعة. لقد "اختتمت الحداثة وعودها و استنفذتها حتى الآخر و تمهد بذلك انبثاق عهد ما بعد الحداثة"(8)

إذا انتقلنا من التحولات الفكرية العامة لمرحلة ما بعد الحداثة إلى الفضاء النقدي يمكننا القول إن تاريخ 1968 (ثورة الطلبة في فرنسا) هو تاريخ حاسم بالنسبة للنقد الأدبي حيث سقطت أسطورة النموذج اللغوي وارتد البنيويون أنفسهم عن مشروعهم، و منذ ذلك الحين عمل النقاد ما بعد البنيويين – بارث جوليا كريستيفا فيليب سولر بول ريكور جاك ديريدا – باستمرار على تجاوز النموذج البنيوي ، و لعل المشروع السيميائي كان سباقا إلى ذلك التجاوز ، و تلته فيما بعد تيارات التفكيك و التأويل و الدراسات الثقافية المختلفة . و في ظل هذه التجاوزات تغيرت طبيعة النقد الأدبي فصار عملية "تفاعل" و "حوار" مع النص يتغيا الناقد/القارئ من ورائها ممارسة عملية الفهم في أبعد مفاهيمها . لقد تحول النقد إلى "حلم

انكتاب" بتعبير رولان بارث ، حيث "" النص القابل للانكتاب ليس شيئا . من الصعب العثور عليه في خزائن الكتب،و هو يلغي كل نقد إذ لا يكاد النقد ينتُج حتى يمتزج به .لن تقوم إعادة كتابته إلا على تشتيته و بعثرته في حقل الاختلافات اللانهائي"(9) و يغدو الخطاب النقدي و الحال هذه خطاب "إبداعيا" يستدعي بدوره ممارسات القراءة و التأويل.